الحس بالأشياء
في قصص الأطفال عند محمود فهمي

د. رضا عطية *

لئن كانت القصة بالنسبة إلى الطفل مُعطًى معرفيًا وجماليًا، يلبي عددًا من احتياجاته المعلوماتية ويُسهِم في تكوينه وجدانيًا وإنمائه ثقافيًا – فإنَّ طريقة الكتابة الأدبية للأطفال عليها دور مهم وكبير في تشكيل وعيه الوجودي بالعالم وبذاته أيضًا، وفي تأسيس نسق القيَم لديه. فالقصة هي وسيلة لمعرفة الطفل بالأدب ونصوصه كخبرة جمالية تتجاوز مجرد التسلية والاستمتاع بالحكي، إلى كونها وسيلة مهمة ووسيطًا فنيًا لتكوين وإنماء شخصية الطفل وتشكيل سلوكياته وتعديلها.

ومن النماذج الجيدة والمميزة في أدب الطفل وتحديدًا فن القصة تأتي مجموعة قصصية مكوَّنة من ثلاث حواديت، ضمن سلسلة ثلاث حواديت التي تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، للكاتب محمود فهمي – كنموذج ناصع لكتابة أدبية للطفل تجمع بين جماليات فن القَصّ والأبعاد المعرفية والقيمية التي يُمكن بثها عبر هذه القصص.

ثمَّة معادلة ليست بالسهلة تتطلَّبها الكتابة الأدبية للطفل تتمثَّل في إشباع ثلاثة جوانب: الجانب المعرفي؛ بإمداد الطفل بجرعة معلوماتية تضيف إلى مفاهيمه عن العالم ونفسه أو تصحح بعضها وتغيِّرها، والجانب الثاني، هو الجانب الإمتاعي؛ بإثراء البُعد التخييلي لدى الطفل الذي يتمثَّل عوالم الحكي، أما الجانب الثالث، فهو قِيَمِي؛ بإكساب الطفل بعض القيم السلوكية والأخلاقية. لذا تبقى طريقة تقديم الكتابة الأدبية لكل هذه المتطلبات أمرًا مهمًا في أن يؤدي أدب الطفل آثاره المرجوَّة وأن يحقق نتائجه المُتوخَّاة.

* ناقد أدبي – مصر.

في المجموعة القصصية لحواديت محمود فهمي يتبدَّى إلمام الكاتب بشروط الكتابة الأدبية للطفل وسداده لاستحقاقاتها وتلبيته لمتطلباتها، بوعي فني مقتدر ورؤية جمالية متمكنة، تجعل قصة الطفل تحقق أغراض المتعة الجمالية والتأثير القِيَمي والتوجيه السلوكي للطفل.

في أولى قصص المجموعة ثمَّة تمثيل جمالي تخييلي لواقعة قطع الأشجار؛ ليُقيم الكاتب حوارية بين هذه الأشجار قُبيل اجتثاثها واقتلاعها:

استيقظت الأشجار في الغابة على صوت المناشير الكهربائية الكبيرة لقاطعي الأشجار، كان الصوت يأتي من بعيد لكنه أخذ يقترب رويدًا رويدًا مثل نمل يزحف ببطء.

قفز سنجاب بسرعة واعتلى أحد الأغصان بينما انطلقت العصافير من أعشاشها.

قالت شجرة كبيرة:

يا أصدقائي، بعد قليلٍ سيأتون بقاطعاتهم الكبيرة ذات الأصوات المزعجة ليفصلونا عن الأرض التي نبتنا فيها منذ زمنٍ بعيدٍ وعشنا فيها عمرنا كله، صادَقَنا طيورها التي سكنت أغصاننا وبَنتْ أعشاشها فوقها، لم نجد غضاضة أن نأوي الحشرات الصغيرة التي تتخذ من جذوعنا بيتًا لها، خبَّأنا بين فروعنا حيواناتٍ ضعيفةً فرَّت من حيوانات تريد افتراسها شممنا رائحة خوفها وسمعنا دقَّات قلوبها في انتظار ابتعاد الحيوانات المطاردة لها، استمتعنا بالمطر الذي تساقط فوقنا على مدى سنوات طويلة واستدفأنا بشمسٍ صارت تعرفنا ونعرفها، بعد قليل سنصير قطعًا من الخشب فلماذا لا تقصُّ كل واحدة منا حُلْمها عمَّا تود أن تصير إليه بعد ذلك.

قالت شجرة:

أتمنى أن أصير مقاعد للتلاميذ في فصول الدراسة أستمع إلى صخبهم حين يدخلون الفصول فرحين، أستمتع بملامسة كفوفهم الصغيرة لي، يضعون فوقي كتبهم وكراريسهم وتمتصُّ أخشابي ضحكاتهم المرحة.

قالت أخرى:

وأنا أتمنى أن أصير لُعبًا وأراجيح يلهو الأطفال فوقي، يطوِّحون سيقانهم الصغيرة في الهواء بينما أعلو وأهبط بهم وسط المرح والغناء.

قالت شجرة أخرى بينما تمسح دمعةً سقطت فوق خدِّها لحزنها على مفارقة جاراتها:

أما أنا فأحلم أن أصير أبوابًا وشبابيك تنغلق على بيوت دافئة تضمُّ الذين بلا مأوى والمُشرَّدين في الخيام بعد أن هُدمت بيوتهم من أثر الحرب والكراهية، سأصير شبابيك تنفتح

على سماء صافية، شبابيك يدخل منها ضوء الشمس والطمأنينة ليغمر الأثاث الخشبي المصنوع من شجرةٍ صديقةٍ جاءت من غابة بعيدة.

قالت أخرى:

وأنا لا مانع لديَّ من أن أصير حطبًا يستدفئ به هؤلاء المشردون في الليالي الباردة، يجتمعون حولي ليتبادلوا حكاياتهم التي تهوِّن عليهم الانتظار الطويل، يصنعون على عظامي طعامهم ومشروباتهم الساخنة.

ثمَّة أَنْسنَة للأشياء والعناصر الجمادية لدى محمود فهمي ما يتناسب مع مخيلة الطفل التي تميل إلى تذويت الأشياء؛ أي منحها كينونة ذاتية؛ فالطفل يتخيل أنَّه يحادث الأشياء والحيوانات ويتمثلها تُبادله الحديث في حواراته معها. وتتجلى مهارة الكاتب في القدرة على خلق أشكال متنوعة للمادة (الخشب/ الأشجار) في تمثُّله مآلات المادة بعد اقتلاعها من حالتها الطبيعية الأولى، وإعادة تصنيعها من خلال إعطاء المادة نفسها حرية الاختيار والتمنِّي لما يمكن أن تؤديه من عمل نافع في الحياة، ودور مؤثِّر للآخرين؛ وكذلك ما لا تتمناه من استخدامات سلبية لها.

ثمَّة حالة من الأُلْفة يؤسس لها التخييل القصصي لدى محمود فهمي في علاقات الأشياء بالإنسان، كما في تمنِّي الأخشاب/ الأشجار أن تسمع ضحكات التلاميذ الجالسين عليها بعد أن تصير مقاعد لهم.

تبثُّ مثل هذه القصة روحًا إيجابية لدى الطفل بتمثُّل الجوانب الإيجابية لحادثٍ يبدو قاسيًا وسلبيًا في نظر الكثيرين، وهو اجتثاث الأشجار الذي قد يقف البعض عند تمثله بوصفه فعلًا للقتل وحادثًا للموت، لكنَّ وجهة النظر السردية تعمل على تغليب النظرة الإيجابية للحوادث وآثارها على المدى البعيد الممتد.

ومما يبدو مُهمًا في مثل هذه الكتابة للطفل أنَّها تبثُّ رسائل مُحفِّزة لتشكيل وعي الطفل بما يساعده على تكوين إيديولوچيا مدركة لهموم الإنسانية الكبرى في بساطة وعمق في آنٍ، كما في: (أما أنا فأحلم أن أصير أبوابًا وشبابيك تنغلق على بيوت دافئة تضم الذين بلا مأوى والمشردين في الخيام بعد أن هُدمت بيوتهم من أثر الحرب والكراهية)، فتبدو مراعاة الخطاب القصصي لدى محمود فهمي لتكوين أفق رؤيوي لدى الطفل ومد جسور اتصال مع العالم والحادث فيه من أزمات.

في قصة "العودة إلى يوم الإثنين" يحسُّ بطلها نادر بحديث للملابس في الخزانة على إثر

موقف فعله تخلى فيه عن زميل له:

هل عرفت الملابس أنني مستيقظ أنتظرهم أن يبدءُوا فى الكلام، هل ينتظرون أن أنام؟ إذن سأتظاهر بالنوم، سحبت الغطاء وأغمضت عينيَّ.

سمعتُ صوتًا يقول: استيقظوا فنادر قد نام.

– نعم أسمع صوت تنفسه المنتظم.

قال أحدهم: أكمل حديثك أيها القميص الأبيض.

– سأكمل حديثي لكن عليك أن تخفض صوتك قليلًا أيها القميص الأزرق.

رد عليه هامسًا: اتفقنا ولكن أكمل ما حدث، لماذا تقول إن نادر قد أخطأ؟

– نعم لقد أخطأ كان من الممكن أن يعطي زميله مما معه من مال لكنه لم يفعل وفكر بنفسه فقط.

قال البنطلون الرمادي: بالفعل فأنا أعرف ما كان فى جيبي كانت هناك عشرة جنيهات زائدة عن حاجته.

رفعتُ الغطاء عني وجلست في سريري، الآن تذكَّرت، ففي الأسبوع الماضي وبعد انتهاء الحصة الأخيرة كنت في طريقي إلى محطة الأوتوبيس بعد أن صافحت أصدقائي، استوقفني زميلي كريم الذي وقف أمامي وهو يحاول استعادة أنفاسه فقد جاء يجري.

قال : جيدٌ أننى لحقت بك، أحتاج منك إلى خمسة جنيهات وسوف أعيدها إليك غدًا.

سألته عن السبب، فقال إنه قد نسي أن يأخذ السندوتشات التي تعدُّها له أمُّه قبل خروجها إلى العمل في وقت مبكر جدًا فاضطر أن يشتري طعامًا من كانتين المدرسة؛ لذا لم يتبقَّ معه نقود يدفعها لمحصل الأوتوبيس ليعود إلى البيت.

اعتذرتُ له على الرغم من وجود عشرة جنيهات لم أكن بحاجة إليها فى ذلك الوقت، لكنني كنت أدخر لأشتري كلبًا.

نظر كريم إلى الأرض ثم نظر إليَّ في حزن وحيَّاني مودعًا، عبرَ الطريق مسرعًا وسار على الرصيف الآخر عائدًا إلى بيته.

تغيَّب كريم عن المدرسة لعدة أيام ثم جاء بذراع ملفوفة بشاش أبيض، توقف كريم عن إلقاء التحية عليَّ وعن الحديث معي أثناء الفسحة.

عرفت من أصدقائي أنَّه فى طريق العودة إلى البيت قد ضلَّ طريقه وعاد إلى بيته متأخرًا،

كما أن سيارة قد اصطدمت به اصطدامًا خفيفًا أسقطه على الأرض فجُرحت ذراعه.

تضطلع القصة بدور تقويمي لسلوكيات الأطفال، عن طريق تمثُّل نتائج الأفعال السلبية التي قد يقوم بها الطفل كتخلِّيه عن زميل له، وتَبِعات هذا التخلي وآثاره الخطيرة، فتعمل قصص فهمي للأطفال على تشكيل وعي الطفل القيمي عبر مواقف درامية من خلال الحَكْي، وهي طريقة تتخلص من الخطابية ومُباشَرة التوجيه، ما يفيد في إقناع الطفل بما يطرحه الخطاب القصصي.

وكما هو واضح من هذا المقطع من هذه القصة والمقطع الذي من القصة السابقة اعتماد البنية القصصية لدى محمود فهمي على البنية الحوارية، سواء حوار الشخوص، بعضهم مع الآخر، أو حوار الأشياء، فيفيد هذا الحوار في جلاء الأفكار المتجادلة وتفنيد الأسباب والمواقف، وبيان تمايزات الرُّؤَى.

وكما يتبدَّى من قصص محمود فهمي للطفل، فإنَّها تعيد تنشيط خيال الطفل، عن طريق استعادة ارتباط الحس الطفولي بالطبيعة والأشياء، بعد أن أسرف أدب الطفل في العقدين الأخيرين في نسبةٍ كبيرةٍ من نصوصه على ربط الطفل بالوسائل الآلية التكنولوچية، بما لا يضيف جديدًا يُذكر أو ما يمثل له إضافة لمجالات لَهْوِه.